مجلة دراسات إسلامية رقم ISSN 1112-8011
المجلد : 16 العدد : 01 السنة : 2021 ص 25 – 36

المناسبة الصوتية وحسن التأليف في الخطاب القرآني

Phonological occasion and good composition in the Quranic discourse

أحمد بوصبع *

جامعة الزيتونة ، تونس Ahmed17dj@Gmail.com

تاريخ الارسال : 2021/05/11	تاريخ القبول : 2021/05/25	تاريخ النشر : 2021/06/20

ملخص:

جمال القرآن جمال متفرد، لا يماثله جمال أو يقترب منه، وكل مفردة فيه تشكل ركيزة بيانية في نظمه، وركنا بارزا في تركيبه، تضفي عليه جمالاً وإعجازاً، والمتذوق للغة الخطاب القرآني، يدرك موقع المفردة القرآنية وهدفها من حيث دلالة المعنى ودلالة الإيقاع معًا، ويستحيل زحزحت أي مفردة قرآنية عن مكانها أو استبدال حرف منها بآخر فهي تخلب اللب، وتأخذ بالإحساس، وتمتلك النفس، شديدة الارتباط بالمعنى، واختلاف موقعها يضفي إلى اختلاف معانيها، فهي قيمةٌ جمالية صوتيةٌ، لها وظيفةٌ مهمةٌ بما تحمله من دلالات ومعان وإيحاءات، والخطاب القرآني يتخير الألفاظ تخيراً يقوم على أساس من تحقيق الايقاع المتسق مع جو الآية وجو السياق.

الكلمات المفتاحية: الخطاب القرآني، المناسبة الصوتية، المفردة.

Abstract:

The beauty of the Qur'an is a very distinct beauty that does not match it and does not come close to it and every word in it forms a graphic pillar in its systems and a prominent pillar in its composition that increases it beauty and give and who tastes the Qur'anic discourse realizes the position of the Qur'anic word and its goal from all the connotations of meaning and rhythm and it is impossible to move any Qur'anic vocabulary from its place or substitute any A letter from a word because it disturbs the meaning, takes the feeling and owns the soul .. It is very connected to the meaning and the destruction of its sites causes the imbalance of its meanings, as it is a

* المؤلف المرسل

phonological aesthetic value that has a specific function because of its connotations, meanings and suggestions. And the Qur'anic discourse selects

Key words: **Qur'anic discourse; Acoustic occasion; singular**.

مقدمة:

المتأمِّل في الخطاب القرآني في نظمه وتراكيبه وأسلوبه واتساق آياته، وفي تصريف مفرداته، استبان له وجهٌ بديع من أوجه الإعجاز القرآني، ومن بين هذه الأوجه: الإعجاز الصوتي، فالخطاب القرآني يملك نظاما صوتيا وجمالا لغويا ينتظم بِتساوق مدّاته وغناته وحركاته وسكناته انتظاما رائعا.

ذلك أنه خطاب عامّ يقرع الأذان ويهز الوجدان ويحرك الجوارح والأركان وتقشعر منه الأبدان فتلين به القلوب وتخشع للرحمان، وتجد في تآلف مفرداته، وفي تركيب حروفه تناسقا عجيبا. فشتان في القوة والمنعة والتأثير بين المفردة القرآنية وغيرها من المفردات مهما ارتقت وسمت وحيكت أصواتها، فلا يمكن استبدال حرف بحرف ولا مفردة بأخرى، "ولو نزعتها ثم أدير لسان العرب على لفظة أحسن منها لم يوجد، ونحن تتبين لنا البراعة في أكثره، ويخفَى علينا وجهها في مواضع، لقصورنا عن مرتبة العرب يومئذ في سلامة الذوق وجودة القريحة..." [1]، وهذه الخصوصية في الصوت والمفردة القرآنية من مظاهر الإعجاز اللغوي في الخطاب القرآني، إنْ في الجرس أو الإيقاع والنغم أو الدلالة.

قال الرافعي: "ولما كان الأصل في نظم القرآن أن تُعبِّر الحروف بأصواتها وحركاتها ومواقعها من الدلالة المعنوية، استحال أن يقع في تركيبه ما يسوّغ الحكم في كلمة زائدة أو حرف مضطرب أو ما يجري مجرى الحشو والاعتراض، أو ما يقال فيه أنه تغوّث واستراحة كما تجد من ذلك في أساليب البلغاء، بل نزّلت كلماته منازلها على ما استقرَّت عليه طبيعة البلاغة..."[2].

فلغة الخطاب القرآني متعالية إعجازاً وجمالاً.

وفي ضوء ذلك سيتم تناول قيمة صوتية تُعدُّ موضوعا دقيقا، وجليلا ألا وهي المناسبة الصوتية وحسن التأليف في الخطاب القرآني.

المناسبة الصوتية وحسن التأليف:

تُعدُّ المناسبة الصوتية موضوعا دقيقا وجليلا، تناولها علماء التفسير وأهل اللغة وعلماء البلاغة والأصوليون، فهي وجهٌ لطيفٌ من أوجه الإعجاز في الخطاب القرآني، في انتظام مبانيه وارتباط آياتها، واتِّساق معانيه.

المناسبة في اللغة:

تناسب الشيآن: تشاكلا والتّناسبُ التّشَابُهُ، وفلانٌ يُنَاسِبُ فُلانًا، أي يَقرُبُه، وبينهما مناسبة أي مشاكله، وناسَبَ فلانًا: شَرَكَهُ في نَسَبِهِ. ويُقالُ: ناسَبَ الأمرُ أو الشّيءُ فلانًا، أي لاءَمَهُ ووافقَ مِزَاجَهُ، والمقاربةُ، والنّسَبُ: القرابة، يقال نسبه في بني فلان: هو منهم[3].

فهي تعني المشاكلة والمقاربة والتوافق والتماثل، سواء صوتين أو لفظين أو لفظا ومعنى أو غير ذلك، فيجرى أحدهما مجرى الأخر وان كانا مختلفين.

المناسبة الصوتية في الاصطلاح:

المناسبة الصوتية في الاصطلاح لها عدة تعريفات:

فقد عرفها مصطفى مسلم بقوله: "هي الرابطة بين شيئين بأي وجه من الوجوه، وفي كتاب الله تعني: ارتباط السورة بما قبلها وما بعدها، وفي الآيات تعني: وجه الارتباط في كل آية بما قبلها وما بعدها[4].

وعرفها الإمام البقاعي بقوله: "هو علمٌ تُعرفُ منه عِلَلُ ترتيب أجزائهِ، وهو سرّ البلاغة لأدائه إلى تحقيق

مطابقة المعاني لما اقتضاه من الحال، وتتوقف الإجادةُ فيه على معرفةِ مقصودِ السّورة المطلوب ذلك فيها"[5].

فعِلمُ المناسبات يعنى بالبحث في انسجام الآيات وترابط أجزائها وفي الترابط الحاصل بين فواصل الآية ومضمونها وترابط السور بعضها ببعض، انطلاقًا من مقاصدها وأهدافها، للوصول إلى اتساق معانيها.

أما المناسبة الصوتية فتعنى بالترابط الحاصل بين أجزاء الآية ومضمونها والقيمة الدلالية لها.

والمشاكلة بين الألفاظ من مطلوب العرب، ألا ترى أنهم قالوا : أخذه ما قدم وما حدث، فضموا فيها، ولو انفرد لم يقولوا إلا (حدث) مفتوحا. ومنه الحديث: "ارجعن مأزورات غير مأجورات". والأصل : موزورات، فقلبوا الواو ألفا مع سكونها لتشاكل مأجورات، ولو انفرد لم يقلب"[6]، ولنتأمل قوله تعالى: **(لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ)** [النمل: 21]، فاللامان في (لأعذبنه، لأذبحنه) لاما قسم، ثم قال: (ليأتيني) فليس ذا موضع؛ لأنه عذر للهدهد، فلم يكن ليقسم على الهدهد أن يأتي بعذر، لكنه لما جاء به على إثر ما يجوز فيه القسم أجراه مجراه إرادة التناسب الصوتي[7]، وقوله تعالى: (**وَلَوْ شَاء اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ**)[النساء: 90]، فاللام التي في (لسلطهم) جواب لو، ثم قال: (فلقاتلوكم)، فهذه اللام حوذيت بتلك اللام، وإلا فالمعنى: لسلطهم عليكم فقاتلوكم[8].

ومن المناسبة الصوتية في الخطاب القرآني أن يأتي ثاني اللفظين من مادة اشتقاق الأول وإن اختلف جرسهما الصوتي[9]، كما في قوله تعالى: **(وَاشْتَرَوْاْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ)** [آل عمران: 187]، ومثله قوله تعالى: **(فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ)** [آل عمران: 159]، وقوله تعالى: **(لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ)**[الطلاق:7]، فهناك مناسباتٌ اشتقاقيةٌ بين كل من (اشتروا ويشترون) وبين (فتوكل والمتوكلين) وبين (سعته وسعته)، فقط متأملا متدبرا.

حسن التأليف والانسجام الصوتي:

الخطاب القرآني يتميز بتلاؤم ألفاظه وتناسب أصواته وحسن تآلفها في النسيج الصوتي لنظم الآيات ليحدث تأثير في النفوس وجاذبية أساسها ذلك الإيقاع وحلاوته انفرد بهذا الوجه المعجز، فتألقت كلماته من حروف لو سقط واحد منها أو أبدل بغيره أو أقحِم معه حرف آخر، لكان ذلك خللاً بيناً، أو ضعفاً ظاهراً في نسق الوزن وجرس النغمة، وفي حِسّ السمع وذوق اللسان، وفي انسجام العبارة وبراعة المخرَج وتَسانُد الحروف وإفضاء بعضها إلى بعض، ولرأيت هُجنة في السمع، كالذي تنكره من كل مَرئي لم تقع أجزاؤه على ترتيبها، ولم تنفق على طبقاتها، وخرج بعضُها طولاً وبعضُها عرضاً، وذهب ما بقي منها إلى جهات متناكرة[10] .

وهذا النظم القرآني البديع بهر العرب بحسن مبادئ الآي والمقاطع وتماسك الكلمات واتساقها في التراكيب، وقد تأمّلوه آية آية وعشرا عشرا وسورة سورة فلم يجدوا في الجميع كلمة ينبو بها مكانها ولفظة ينكر شأنها أو يرى غيرها أصلح هناك أو أشبه أو أحرى، بل وجدوا اتساقا بهر العقول وأعجز أهل الحكم والبلاغات، ونظاما والتئاما وإتقانا وإحكاما لم يدع في نفس واحد منهم موضع طمع حتى خرست الألسن أن تدّعي وتتقوّل[11].

وتأكيدا لهذا الانسجام والتلاؤم نذكر قوله تعالى:**(وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ)** [الشعراء: 130]، فالطّاء حرف إطباق شديد، واستعلاء وجهر،

أمّا الشين فهو حرف همس ورخاوة وانفتاح، إنّه انسجام بين الصّفات. وإذا كان حرفا النّون والرّاء متقاربين مخرجا لخروج النون من طرف اللسان والثّنايا، والرّاء كذلك مخرجه أول طرف اللسان والثنايا، فإنّ كليهما من حروف الذّلاقة، والتأليف بينهما أسهل من التأليف بين الحروف المصمتة[12].

ونلحظ أن الخطاب القرآني يتجنب تتابع الأصوات المتماثلة أو المتقاربة، كما في قوله تعالى: (**وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ**)[النحل: 61]، وقوله تعالى في سورة فاطر:(**وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ)** [فاطر: 45]، وللسائل أن يسأل عن قوله في الأولى (**بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا**)، وعن قوله تعالى في الثانية (**بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا**)، والجواب: لم يذكر (**الظّهر**) في الآية الأولى لتقدّم (**الظاء**) في المبتدأ بعد (لو)، والظاء تعزُّ في كلام العرب؛ ألا ترى أنها ليست لأمة من الأمم سوى العرب، فلما اختصّت بلغتها وتُجُنِّبَت إلاّ فيها استعملت في الآية الأولى في الابتداء بعد (لو)، واستعملت في الآية الثانية في جواب ما بعد (لو) لهذا، وأجريت مُجرى ما استثقل من الحروف فلم يجمع بينهما في جملتين معقودتين عقد كلامٍ واحد، وهما ما بعد (لو) وجوابها، وحسن التأليف وقصد الحروف مراعى في الفصاحة لا يخفى على أهل البلاغة[13].

ولو تدبرت ألفاظ القرآن الكريم في نظمها، لرأيت حركاتها الصرفية واللغوية تجري في الوضع والتركيب، مجرى الحروف أنفسها فيما هي له من أمر الفصاحة، فيهيّئ بعضها لبعض، ويساند بعضها بعضا، والتي لا تجدها إلا مؤتلفة مع أصوات الحروف، مساوقة لها في النغم الموسيقى[14].

القيمة الدلالية للمناسبة الصوتية:

من باب مصاقبة الألفاظ للمعاني بما يشاكل أصواتها، أومقاربتها، نجد في الخطاب القرآني نماذج كثيرة دلت على مناسبة الصوت للكلمة والكلمة للمعنى فهذا أضفى عليها رونقا وجمالا، وهنا يقول السيوطي: "فانْظر إلى بديع مناسبةِ الألفاظ لمعانيها وكيف فَاوَتَت العربُ في هذه الألفاظ المقْتَرنة المتقاربة في المعاني فجعلت الحرفَ الأضْعف فيها والألْين والأخْفَى والأسْهل والأهْمس لِمَا هو أدْنى وأقل وأخف عملا أو صوتا وجعلت الحرفَ الأقْوى والأشد والأظهر والأجهر لِمَا هو أقوى عملا وأعظم حِسّاً"[15]، وتجد الإعجاز في اختيار الألفاظ لمواضعها ونهوض هذه الألفاظ برسم الصور على اختلافها[16]، والخطاب القرآني يتناول من الكلمات أدقها دلالة على المعنى وأتمها تصويرا وتشخيصا للصورة وأجملها وأحلاها إيقاعا ووزنا بالنسبة إلى نظائرها[17]، ولا جرم أن المعنى الواحد يعبَّر عنه بألفاظ لا يجزي واحد منها في موضعه عن الآخر؛ لأن لكل لفظ صوتا بما أشبه موقعه من الكلام ومن طبيعة المعنى الذي هو فيه، والذي تساق فيه الجملة.. [18].

وليس من شك أن دقة الاختيار للمفردة القرآنية وتوجيهها بما يتوافق ومحور الهدف الذي تصبو إلى تحقيقه يشكل العنصر الأهم في إعجاز هذا القرآن وبلاغته، فهي تتناول من المعنى سطحه وأعماقه وسائر صوره وخصائصه ولا تقف عند العموميات التي تقف عند حدودها تعبيراتنا البشرية التي تعاني من العجز[19].

ونجد الإعجاز في اختيار الكلمات لمواضعها، ونجد المعاني تشع بنورها من هذه الكلمات، لتحمل دلالات دقيقة تنبعث من صور تلك الكلمات على اختلافها، ولنقرأ قول الله تعالى: (**وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ**) [التكوير: 18]، فكلمة (**تَنَفَّسَ**) ملائمة تماماً لرقة الصبح،

ويبدو ذلك في همس التاء والسين وذلاقة النون والفاء، فاللفظة موحية بدلالتها وجرسها وظلها على هذه اليقظة التي شملت الطبيعة[20]، فإننا لو أردنا تغيير كلمة من هاتين الكلمتين لتغيَّرت الصورة البيانية، ولننظر فيهما، فالكلمة الأولى: وهي (**الصبح**)، فإنَّها تدل على النور الذي يتخلَّل الظلمة، ويسري فيها شيئًا فشيئًا، وينبعث في هذا الوجود فيملؤه نورًا، وتنبعث من بعده الحياة، ويخرج الناس إلى معايشهم بعد سبات الليل وسكنه، وما يغشى به الكون من لباس الظلمة؛ ولا شكَّ أن كلمة الفجر قد تدلُّ على بعض معاني كلمة الصبح... وعلى مجرَّد ابتداء نهاية الظلمة، ولذلك يقترن بها ذكر الليالي، كما قال تعالى: (**وَالْفَجْرِ (1) وَلَيَالٍ عَشْرٍ**) [الفجر: 1 – 2]، فقد كان ذكر الليالي مع الفجر متناسبًا؛ لأنَّ الليل متآخٍ مع الفجر في معناه، وقصد به مجرد نهاية الليالي؛ ولكن كلمة الصبح لوحظ فيها الإشارة إلى ابتداء النهار، فإذا كان وقت الفجر والصبح واحدًا فإنَّ الفجر فيه بيان إنهاء الليل، والصبح ابتداء النهار... والكلمة الثانية: كلمة (**تَنَفَّس**) فإنَّ كلمة التنفس في ذاتها تدل على بدء مظاهر الحياة شيئًا فشيئًا؛ وذلك لأنَّ أصل التنفس من النفس، وهي الحياة، وهي أيضًا الريح، وهي الحركة الدائمة المستمرة في الداخل والخارج، فهي تشمل ما يدخل في النفس من أسباب الحياة، وما يخرج منها لتستمرّ الحياة، ويقال: نفِّس عني، أي: فرج عني... ولو أنك وضعت كلمة أشرق بدل تنفَّس، كأن يقال ولكلام الله تعالى المثل الأعلى: (والصبح إذا أشرق)، أو أصبح أو أنار أو أضاء، فإنَّ كلمة منها أو كلمات لا تقوم مقام تنفس، ولا تغني غناءها. فهل ترى كلمة تدل على هذه المعاني أبلغ من كلمة: (**والصبح**) إذا تنفس، وبهذا يتبين أنَّ ألفاظ القرآن الكريم كل كلمة في حيِّزها، لا يملأ غيرها في موضعها فراغه[21].

وفي قول الله تعالى: (**لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ**) [البقرة: 286]، جاء في هذا النصّ تلاؤم بين اللّفظ المختار والمعنى المراد به، إذْ جاء فيه التفريق بين ما يدلُّ على فعل الحسنات وما يدلُّ على فِعْلِ السيئات، فاختير فعلُ (**كَسَبَ**) الذي يُسْتَعْمَل في مكاسب الحياة الدنيا وإنْ شقَّ فعلُهَا على نفسه، واختير فيه فعلُ (**اكْتَسَب**) الذي فيه معنى تَكَلُّف حَمْل الْعِبْء مراداً به فعلُ السّيئات والمعاصي والآثام، لأنّها أوزارٌ وأحمالٌ ثقيلة تأتيه بأنواعٍ من العذاب في دنياه وأُخراه، وإنْ جلَبَتْ له لَذَّةٌ عاجلة، وهانَ فِعْلُها على نفسه [22]، وهذا ما استخلصه الزمخشري في قوله: "ينفعها ما كسبت من خير ويضرها ما اكتسبت من شر، لا يؤاخذ بذنبها غيرها ولا يثاب غيرها بطاعتها؛ فإن قلت: لم خص الخير بالكسب، والشر بالاكتساب؟ قلت: في الاكتساب اعتمال، فلما كان الشر مما تشتهيه النفس وهي منجذبة إليه وأمّارة به، كانت في تحصيله أعمل وأجدّ، فجعلت لذلك مكتسبة فيه، ولما لم تكن كذلك في باب الخير وصفت بما لا دلالة فيه على الاعتمال"[23].

وفي قوله سبحانه: (**إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ**) [آل عمران: 59]، فعدل سبحانه عن الطين الذي أخبر في كثير من مواضع الكتاب العزيز أنه خلق آدم منه، منها قوله تعالى: (**إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِن طِينٍ**) [ص: 71]، وقوله سبحانه حكاية عن إبليس (**قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ**) [ص: 76]، فعدل عز وجل وهو أعلم، عن ذكر الطين الذي هو مجموع التراب والماء إلى ذكر مجرد

التراب، لأنه أدنى العنصرين، وأكثفهما لما كان المقصود مقابلة من ادعى في المسيح الإلهية بما يصغر أمر خلقه عند من ادعى ذلك، فلهذا كان الإتيان بلفظة التراب أمتن بالمعنى من غيرها من العناصر ولو كان موضعه غيره لكان اللفظ غير مؤتلف بالمعنى المقصود، ولما أراد سبحانه الامتنان على بني إسرائيل بعيسى عليه السلام أخبرهم عنه أنه يخلق لهم من الطين كهيئة الطير تعظيماً لأمر ما يخلقه بإذنه، إذ كان المعنى المطلوب الاعتداد عليهم بخلقه ليعظموا قدر النعمة به[24].

والمتأمل في الخطاب القرآني يرى أن بعض المفردات وضعت في موطن والبعض الآخر في موطن آخر، وفي كل موضع وضعت فيه لها مكانتها ومعناها ودلالتها، ليبلغ التعبير القرآني بذلك ذروته في اختيار اللفظ، وحسن الصياغة ودقة التعبير، فمثلاً، كلمتي (هامدة)، (خاشعة) استعملت في القرآن للدلالة على الأرض قبل نزول المطر وخروج النبات منها، قوله تعالى **(تَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ)** [الحج: 5]، وقال تعالى **(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ)**[فصلت: 39]، يقول سيد قطب: "وعند التأمل السريع في هذين السياقين يتبين وجه التناسق في (هامدة) و(خاشعة). إن الجو في السياق الأول جو بعث وإحياء وإخراج فمما يتسق معه تصوير الأرض بأنها ((هامدة)) ثم تهتز وتربو، وتنبت من كل زوج بهيج. وإن الجو في السياق الثاني هو جو عبادة وخشوع وسجود، يتسق معه تصوير الأرض بأنها ((خاشعة)) فإذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت..."[25].

ومن ذلك الإعطاء والإيتاء، فالإيتاء أقوى من الإعطاء في إثبات مفعوله، لأنَّ الإعطاء له مطاوع والفعل الذي له مطاوع أضعفُ في إثبات مفعوله من الذي لا مطَاوع له، قال تعالى **(قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء وَتُعِزُّ مَن تَشَاء وَتُذِلُّ مَن تَشَاء بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)** [آل عمران: 26]، لأن الملك شيء عظيم لا يعطاه إلا مَنْ له قوة، وكذا قوله: **(يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاء وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ)** [البقرة: 269]، **(وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ)** [الحجر: 87]، لعظم القرآن وشأنه... [26].

ومن ذلك كلمة (حرث) التي جاءت مناسبة في موقعها دالة بمعناها فقد شبه النساء به دون الأرض أو الحقل أو الزرع وغيرها من الكلمات وذلك في قوله تعالى: **(نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ)** [البقرة: 223]. ولعل اختيار هذه اللفظة دون سواها فيها من لطف الكناية في التشابه بين صلة الزارع بحرثه وصلة الزوج بزوجه في هذا المجال الخاص، وبين ذلك النبت الذي يخرجه الحرث وذلك النبت الذي تخرجه الزوج وما في كليهما من تكثير وعمران وفلاح، بينما هذه اللطائف لا تستفاد من كلمة (الأرض) إذ قد تكون جدباء لا تصلح لحراثة الزرع وكذلك الحقل فإنه لا يدل على عمل المالك فيه بل تدل الكلمة على شيء جاهز لا دخل فيه لبذر الحارث[27]، فأخذت كلمة (حرث) موقعها وموضعها وأدت معنى لم تكن لتؤديه أي كلمة أخرى لو حلت محلها، فناسبت الإخصاب والتوالد والنماء فالسياق هنا يتسق معه التعبير بالحرث.

ومن ذلك سؤال زكريا عليه السلام لربه عندما أخبر بما سيرزقه الله تعالى من الذرية فقال: **(قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلاَمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ**

كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاء) [آل عمران: 40]، في حين أن مريم عليها السلام حصل لها الأمر نفسه فقالت: **(قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاء إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ)** [آل عمران: 47]، فأجاب الله تعالى زكريا عليه السلام بقوله:﴿ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاء ﴾، وأجاب مريم عليها السلام بقوله: كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاء، وذلك أن التعبير بلفظ (يَفْعَلُ) في حالة زكريا عليه السلام لا يثير في النفس خواطر سيئةٍ؛ فزكريا عليه السلام وامرأته زوجان فلا شبهة إن حملت المرأة من زوجها، وقد كان إخصابها بتسخير الله تعالى زوجها لذلك الأمر، وأما في حالة مريم عليها السلام فإن التعبير بلفظ (يَفْعَلُ) ربما أثار خواطر سيئةٍ عند بني إسرائيل، فاللفظ لهذا غير مناسبٍ للمقام والحال، ومن هنا جاء الفعل (يَخْلُقُ) متناسبًا مع السؤال بكيفية الولادة فهي لم تتزوج بعد[28].

ومن أمثلة الترابط بين أجزاء الآية الواحدة وتناسب ألفاظها لمقصودها وغرضها، قوله تعالى: **(وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ)** [هود: 113]، فإنه سبحانه لما نهى عن الركون إلى الظالمين، وهو الميل إليهم والاعتماد عليهم، وكان دون ذلك مشاركتهم في الظلم، أخبر أن العقاب على ذلك دون العقاب على الظلم؛ وهو مسُّ النار الذي هو دون الإحراق والاضطرام؛ وإن كان المس قد يُطلق ويراد به الإشعار بالعذاب[29]، فالركون إلى الظالم يناسبه مس النار للراكن.

وفي قوله تعالى: **(فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا)** [الإسراء: 23]، أُفٍّ هو اسم صوت ينبيء عن التضجر[30]، ومعنى اللفظة أنها اسم فعل كأن الذي يريد أن يقول أضجر أو أتقذر أو أكره أو نحو هذا يعبر إيجازا بهذه اللفظة، فتعطي معنى الفعل المذكور، وجعل الله تعالى هذه اللفظة مثالا لجميع ما يمكن أن يقابل به الآباء مما يكرهون، فلم ترد هذه في نفسها، وإنما هي مثال الأعظم منها، والأقل فيفهم منه النهي مما هو أشد أذى بطريق فحوى الخطاب بالأوْلى، والانتهار إظهار الغضب في الصوت واللفظ[31]، فكلمة (أف) مطابقة في صورتها لنطقها أي: الدال يوافق المدلول.

وقوله تعالى: **(كَلاَّ لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ)** [الهمزة: 4]، فنلحظ في الآية التناسب بين المفردات باحتلال كل لفظة مكانها، وتلاؤمها مع السياق والمعطيات، فهي تشعر بأن المهددين بهذا الوعيد جماعة اتخذوا همز المسلمين ولمزهم ديدنا لهم، فكان التناسب حاصلا مبنى ومعنى وصورة وظلا وإيحاءً، وتناسقت الألفاظ لترسم صورة حية، وتحدث ورجة نفسية، وهزة قلبية، ف لفظ (كلا) يحمل في طياته الرهبة والهلع والخوف، ولو تكرر في الفم مرات لاهتز، وفيها زجر عن التلبس بالحالة الشنيعة التي جعلتهم في حال من يحسب أن المال يخلد صاحبه، وهي تفيد الردع والزجر، وتترك المتلقي في ذهول ينتظر لما بعده، وهو الحكم الصادر من الله سبحانه، **لَيُنبَذَنَّ)** صورة هذا المتعالي الساخر المنبوذ في (الحطمة) التي تحطم كل ما يلقى إليها، فتحطم كبرياءه وقوته وجاهه، أي ليلقين وليقذفن يوم القيامة في النار التي من شأنها أن تحطم كل ما يلقى فيها، أي تكسره، وكلمة (النبذ) تفيد التحقير والتصغير[32]، إن صيغة (لينبذنَّ) وما فيها من تشديد، وتأكيد باللام والنون، وهي تحمل معنى الإلقاء والطرح نستوحيه من جرسها، ومن الضغط والثقل في النطق بها، كل هذا يؤكد دقة الاختيار، **لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ)** تضفي على النص جرسا موسيقيا مدويا ومروعا يجعل المتلقي خائفا وحزينا،

وهكذا تحقق هذه الكلمات تناسبا متكاملا وشاملا؛ فيه دقة في الوضع والاختيار وفيه قوة الجرس والنغم، وهي بذلك تشكل لوحة فنية تحمل صورة كلية مؤثرة ذات لون وحركة وصوت.

وانظر إلى حسن التأليف والانسجام وموافقة المعنى. في قوله تعالى (**فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ**) [الأعراف: 133]، قد تضمَّنت الآية خمسة ألفاظ، وهي: الطوفان، والجراد، والقمَّل، والضفادع، والدم، وأحسن هذه الألفاظ الخمسة هي الطوفان والجراد والدم، فلمَّا وردت هذه الألفاظ الخمسة بجملتها قُدِّمَ منها لفظتا (الطوفان) و(الجراد)، وأُخِّرَت لفظة (الدم) آخرًا، وجعلت لفظة (القمل والضفادع) في الوسط، ليطرق السمع أولًا الحسن من الألفاظ الخمسة, وينتهي إليه آخرًا، ثم إن لفظة (الدم) أحسن من لفظتي (الطوفان) و(الجراد)، وأخف في الاستعمال، ومن أجل ذلك جيء بها آخرًا، ومراعاة مثل هذه الأسرار والدقائق في استعمال الألفاظ ليس من القدرة البشرية[33].

وفي قوله تعالى: (**وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ**) [فاطر: 37]، الصريخ في اللغة يعني المغيث والمستغيث، فهو من الأضداد[34].. والاستصراخ الإغاثة، واستصرخ الإنسان إذا أتاه الصارخ، وهو الصوت يعلمه بأمر حادث ليستعين به[35]، واستعمال صيغة الافتعال في كلمة: (يَصْطَرِخُونَ) تدلّ على شدة الصراخ والصياح، وكان من المناسب لهذا المعنى استعمال حروف التفخيم الصاد والطاء والخاء، وكذا التوازن المنسجم بين الحركة والسكون في الآية؛ "وتسمع كلمة: (يَصْطَرِخُونَ) فيخيل إليك جرسها الغليظ، غلظ الصراخ المختلط المتجاوب من كل مكان، المنبعث من حناجر مكتظة بالأصوات الخشنة؛ كما تلقي إليك ظل الإهمال لهذا الاصطراخ الذي لا يجد من يهتم به أو يلبيه. وتلمح من وراء ذلك كله صورة ذلك العذاب الغليظ الذي هم فيه يصطرخون"[36]، ويوحي اللفظ في مادة (صرخ) بالشدة والخوف، والهلع، والفزع، والتشبث بالخلاص، فقد بلغ بهم اليأس مبلغه.

إن هذا التناسب وهذا الحسن في التأليف في آي الخطاب القرآني ومفرداته وعباراته، والروعة في أسلوبه، والجمال في صوره، والعذوبة في نغمه تحقق الإعجاز باستمالة القلوب وتحريك العقول إذ يجتمع فيه التصوير بالحركة، والتصوير باللون، والتصوير بالإيقاع.

الخاتمة:

– للمناسبة الصوتية بمختلف أشكالها دور كبير في تحقيق الأثر الدلالي والجمالي.

– اختيار اللفظ المناسب للصوت المناسب يعد حقلاً يانعاً في الخطاب القرآني لجملة من الدلالات الإيحائية واللغوية والصوتية والجمالية.

– الخطاب القرآني يعتني بالمناسبة الصوتية باختيار الألفاظ تخيراً يقوم على الدلالة والمعنى ويبنى على أساس من تحقيق الايقاع المتسق مع جو الآية وجو السياق، بل جو السورة كلها. وله في ذلك هدف وغاية تنتهي دونها كل الغايات لتلقح الأفئدة والضمائر والأبصار.

– يستحيل زحزحت أي مفردة قرآنية عن مكانها أو استبدال حرف منها بآخر، فهي مختارة لتؤدي وظيفتها البيانية في جرسها وإيقاعها، ووظيفتها الدلالية ولها بصمتها الخاصة بها، والمختلفة عن غيرها.

– المفردة القرْآنيةُ ذات أبعاد عدة، بعد صوتي ايقاعي، وبعد بنية وصيغة، وبعد موضع وضعت فيه،

وبعد دلالة، وكلُّ بُعْدٍ منها يعد رافِدا من روافِد الإعجاز القرآني.

مراجع البحث:

1. ابن الأثير ضياء الدين، **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**، تح: أحمد الحوفي وبدوي طبانة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة، القاهرة.

2. ابن عطية الاندلسي، **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، تح: عبد السلام عبد الشافي مُحَمَّد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1422هـ.

3. ابن فارس أحمد بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين، **معجم مقاييس اللغة**، تح: عبد السلام مُحَمَّد هارون، دار الفكر، 1399هـ- 1979م.

4. ابن منظور جمال الدين أبو الفضل مُحَمَّد بن مكرم الأنصاري، **لسان العرب**، دار صادر – بيروت، ط:3، 1414هـ.

5. ابن يعيش، **شرح المفصل**، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1422 هـ، 2001 .

6. أبو الإصبع العدواني، **تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن**، تح: الدكتور حفني مُحَمَّد شرف المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ط:1

7. أبو زهرة مُحَمَّد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد، **المعجزة الكبرى القرآن**، دار الفكر العربي.

8. أحمد ياسوف، **جماليات المفردة القرآنية**، دار المكتبي دمشق، ط2، 1419 هـ 1999م.

9. الألوسي، **روح المعاني**،تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية بيروت، ط:1، 1415هـ.

10. البقاعي، **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

11. تمام حسان، **البيان في روائع القرآن**، عالم الكتب،ط:1، 1413هـ-1993م.

12. جلال الدين السيوطي، **معترك الأقران في إعجاز القرآن**، دار الكتب العلمية، بيروت ، لبنان، ط1، 1408هـ، 1988م.

13. الجوهري، **الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية**، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط:1407،4هـ- 1987 م.

14. الخطيب الإسكافي، **درة التنزيل وغرة التأويل**، دارالآفاق الجديدة، بيروت، ط**1**، **1973**م.

15. الرازي، **مختار الصحاح**، تح: يوسف الشيخ مُحَمَّد، المكتبة العصرية، الدار النموذجية، بيروت، صيدا، ط5، 1420هـ، 1999م.

16. الزركشي مُحَمَّد بن بهادر بن عبد الله ، **البرهان في علوم القرآن**، تح: مُحَمَّد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت، 1391هـ.

17. الزمخشري، **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، دار الكتاب العربي، بيروت، ط:3، 1407هـ.

18. سيد قطب، **التصوير الفني في القرآن**، دار الشروق، بيروت – القاهرة، ط:7، 1402هـ – 1982م.

19. السيوطي، **المزهر في علوم اللغة**، تح: فؤاد علي منصور، دار الكتب العلمية بيروت، ط1، 1418هـ، 1998م.

20. السيوطي، **المزهر في علوم اللغة**، تح: فؤاد علي منصور، دار الكتب العلمية بيروت، ط1، 1418هـ، 1998م.

21. عبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني **البلاغة العربية**، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، ط:1، 1416هـ - 1996م.

22. مُحَمَّد جمال الدين بن مُحَمَّد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي، **محاسن التأويل**، تح: مُحَمَّد باسل عيون السود، دار الكتب العلميه، بيروت، ط1418،1هـ.

23. مُحَمَّد سعيد رمضان البوطي، **من روائع القرآن**، موسسة الرسالة، بيروت،1420هـ -1999م.

24. مصطفى صادق الرافعي، **إعجاز القرآن والبلاغة النبوية**، دار الكتاب العربي، بيروت، ط8، 1425هـ-2005م.

25. مصطفى مسلم، **مباحث في التفسير الموضوعي**، دار القلم، ط4، 1426هـ،2005م.

الهوامش:

(1) جلال الدين السيوطي، **معترك الأقران في إعجاز القرآن**، دار الكتب العلمية، بيروت ، لبنان، ط1، 1408هـ، 1988م، ج1، ص23.

(2) مصطفى صادق الرافعي، **إعجاز القرآن والبلاغة النبوية**، دار الكتاب العربي، بيروت، ط8، 1425هـ-2005م، ص155.

(3) ينظر: الجوهري، **الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية**، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط:1407،4هـ-1987 م ج1، ص224، والرازي، **مختار الصحاح**، تح: يوسف الشيخ مُحَمَّد، المكتبة العصرية، الدار النموذجية، بيروت، صيدا، ط5، 1420هـ، 1999م، ص565.

(4) ينظر: مصطفى مسلم، **مباحث في التفسير الموضوعي**، دار القلم، ط4، 1426هـ،2005م، ص 58.

(5) البقاعي، **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ج1، ص5.

(6) ابن يعيش، **شرح المفصل**، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1422 هـ، 2001 م، ج9، ص64.

(7) ينظر: الزركشي مُحَمَّد بن بهادر بن عبد الله ، **البرهان في علوم القرآن**، تح: مُحَمَّد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت، 1391هـ ، ج3، ص391.

(8) ينظر: السيوطي، **المزهر في علوم اللغة**، تح: فؤاد علي منصور، دار الكتب العلمية بيروت، ط1، 1418هـ، 1998م، ج1، ص269.

(9) ينظر: تمام حسان، **البيان في روائع القرآن**، عالم الكتب،ط:1، 1413هـ-1993م ، ص306.

(10) ينظر: الرافعي، مرجع سابق ص150.

(11) ينظر: مصطفى مسلم، مرجع سابق، ص134.

(12)ينظر: احمد ياسوف، **جماليات المفردة القرآنية**، دار المكتبى دمشق، ط2، 1419 هـ 1999م، ص177

(13)ينظر: الخطيب الإسكافي، **درة التنزيل وغرة التأويل**، دارالآفاق الجديدة، بيروت، 1973م، ط1، ص26 .

(14) ينظر: الرافعي، مرجع سابق، ص 156.

(15)السيوطي، **المزهر في علوم اللغة**، تح: فؤاد علي منصور، دار الكتب العلمية بيروت، ط1، 1418هـ، 1998م ج1، ص44.

(16) ينظر: سيد قطب، **التصوير الفني في القرآن**، دار الشروق، بيروت – القاهرة، ط:7، 1402هـ – 1982م، ص93- 94

(17) ينظر: مصطفى مسلم، مرجع سابق، ص138.

(18) ينظر: الرافعي، مرجع سابق، ص155

(19) ينظر: مُحَمَّد سعيد رمضان البوطي، **من روائع القرآن**، موسسة الرسالة، بيروت،1420هـ -1999م ص136.

(20) ينظر: سيد قطب، **التصور الفني في القرآن**، مرجع سابق، ص93.

(21) ينظر: أبو زهرة مُحَمَّد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد، **المعجزة الكبرى القرآن**، دار الفكر العربي ، ص84-85.

(22) ينظر: عبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني **البلاغة العربية**، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، ط:1، 1416هـ - 1996م. ج2، ص523.

(23) الزمخشري، **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، دار الكتاب العربي، بيروت، ط:3، 1407هـ ، ج1، ص332.

(24) ينظر: أبو الإصبع العدواني، **تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن**، تح: الدكتور حفني مُحَمَّد شرف المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ط:1 ص194-195.

(25) ينظر: سيد قطب، **التصوير الفني في القرآن**، مرجع سابق، ص118.

(26) ينظر: السيوطي، **معترك الأقران في إعجاز القرآن**، مصدر سابق، ج3، ص488.

(27) ينظر: سيد قطب، **التصوير الفني في القرآن**، مرجع سابق، ص91، ومصطفى مسلم، مرجع سابق، ص138.

(28) ينظر: تمام حسان، **البيان في روائع القرآن**، مرجع سابق، ص323.

(29) الزركشي، مصدر، سابق ج3، ص 433.

(30) الألوسي، **روح المعاني**،تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية بيروت، ط:1، 1415هـ، ج8، ص55.

(31) ينظر: ابن عطية الاندلسي، **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، تح: عبد السلام عبد الشافي مُحَمَّد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1422هـ، ج3، ص448.

(32) ينظر: مُحَمَّد جمال الدين بن مُحَمَّد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي، **محاسن التأويل**، تح: مُحَمَّد باسل عيون السود، دار الكتب العلميه، بيروت، ط1418،1هـ، ج9، ص540.

(33) ينظر: ابن الأثير ضياء الدين، **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**، تح: أحمد الحوفي وبدوي طبانة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة، القاهرة، ج1، ص169.

(34) ينظر : ابن فارس أحمد بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين، **معجم مقاييس اللغة**، تح: عبد السلام مُحَمَّد هارون، دار الفكر، 1399هـ- 1979م ، ج3، ص348.

(35) ينظر : ابن منظور جمال الدين أبو الفضل مُحَمَّد بن مكرم الأنصاري، **لسان العرب**، دار صادر – بيروت، ط:3، 1414هـ ، ج3، ص33.

(36) ينظر : سيد قطب، **التصور الفني في القرآن**، مرجع سابق، ص92.